المحاضرة الخامسة: الشعر الصوفي والعشق الإلهي.

نشأة التصـــــوف وتطوره:

ظهرت في أواخر القرن الثاني للهجرة موجة زهد حادة، لم يسلم منها إلا بعض المترفين والمجان الذين انغمسوا في بهرج الدنيا وملذاتها، وأخذت هذه الموجة تلتقي بموجبة أخرى وتغذيها هي موجة صوفية بحتة، قامت على فكرة المحبة الإلهية، ومن أوائل أئمة التصوف الإسلامي الذين غرسوا مبادئه: الحارث بن أسد المحاسبي ت. 234هـ، وهو الداعي إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها. ونمضي في العصر فيلقانا ذو النون المصري ت. 243هـ الذي يعد الأب الحقيقي للتصوف، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقا بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التي تقوم على الفكر والمنطق، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي[1].

وإذا كان أبو النون هو الذي أدخل في التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامي ت. 261هـ هو الذي أذاع فكرة الفناء في الذات الإلهية التي يقصد بها تجدر النفس عن رغباتها وقمعها لشهواتها وانمحاء إرادتها في الإرادة الإلهية. وهو أول من أدخل في التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهي[2]. ونمضي حتى نلتقي في أواخر القرن الثالث الجنيد ت. 297هـ، الذي أرسى نظام الطرق والمريدين في التصوف، وكان يستعمل أسلوبا مليئا بالمبالغات في الترغيب والترهيب، زاخرا بالألفاظ الكثيرة الإيهام والإيحاء. ومن أشهر تلاميذ الجنيد: الحلاج الحسين بن منصور الذي يرى أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصفي نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التي يبتغيها إذ يتمثل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التي سواها الله فيه، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء. وأخذ يكثر من الشطحات ومن الكلام الموهم بالكفر من مثل "أنا الله" و "أنا الحق"، أو كقوله شعرا:

مزجت روحـك في روحي كما ... تمـــــــزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شـــــيء مسني ... فإذا أنت أنا في كـــــــل حال

أو قوله:

أنت بين الشغاف والقلب تجري ... مثل جري الدمـــوع من أجفاني
وتحـــــل الضمير جوف فؤادي ... كحلـــــول الأرواح في الأبدان

أو قوله:

أنا من أهوى، ومن أهـوى أنا ... نحن روحان حللنا بـــــــدنا
فإذا أبصرتني أبصـــــــــرته ... وإذا أبصـــــــــــرته أبصرتنا

---

[1]- قسم المعرفة ثلاثة أقسام: 1. قسما مشتركا بين عامة المسلمين وهي معرفة قلبية تعتمد التجربة الحدسية. 2. قسما خاصا بالعلماء والفلاسفة، وهي معرفة عقلية تعتمد على الفكر والمنطق. 3. قسما خاصا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم، وهي معرفة قلبية تعتمد على الأحوال والمقامات.

[2]- هو القائل:"سبحاني ما أعظم شأني". ثم يقول:" خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد، لأن الكل واحد في عالم التوحيد"

اتهم الحلاج من أجل ما سبق ذكره بالكفر والزندقة، وكانت هذه الأمور من أهم الأسباب في سجنه ثم صلبه في 12 من ذي القعدة سنة 309هـ[3].

تعريف التصوف وأهم طرقه:

التصوف هو بغضك الدنيا حبا لله، أو هو موتك في نفسك كي تحيا في الله، وألا تملك شيئا، وألا يملكك شيء، وه طريق الوصول إلى الله. والتصوف بتعبير بسيط هو مبالغة في الزهد والنسك وعبادة الله، فالمتصوف من بالغ في زهده، وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته.

أخذت تشيع في التصوف منذ القرن الرابع الهجري طريقتان: طريقة فلسفية يتعمق الصوفي بها في الحب الإلهي حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج ثم من تابعوه أمثال ابن عربي. والطريقة السنية القائمة على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل عليه والثقة فيه المفرطين، فهي طريقة الزهادة والفقر والتقشف والإعراض عن الدنيا ببهجتها وزخرفها واعتبارها برقا خلبا، ومظهرا خداعا كاذبا.

مذاهب شعراء الصوفية:

1. مذهب الوجد والعشق الإلهي:

ويمثل هذا المذهب عمر بن الفارض [576هـ- 632هـ] الملقب بسلطان العاشقين للذات الربانية، وأغلب أشعاره تموج بوجد ملتاع لا حدود له، متخذا للتعبير عن ذلك لغة العشاق العذريين، وسار على نهج بن الفارض الخيمي أبو عبد الله ت. 685هـ، وتدور معاني الوجد عند شعراء هذا المذهب حول موضوعات الشوق إلى الحبيب، وما يعانيه العاشق من آلام مبرحة في سبيل محبوبه، مع التأكيد على صفات الوفاء والتوحد في الحب. يقول الخيمي:

كلفت ببدر في مبادي الدجى بدا — فعاد لنا ضـــــوء الصباح كما بدا
وحجّب عنا حسنـــــه نور حسنه — فــمن ذلك الحسن الضلالة والهدى
فيا عاذلي دعـــــني ونار صبابتي — عليــه، فإني قــد وجدت لها هدى
وهاك يـــــدي أني على ترك حبه — مدى الدهر لا أعطيك يا عاذلي يدا
فما العيــش إلا أن أعيش مواصلا — لبـــدري أو في حب بدري مسهّدا
فيا نار قلــبي حبذا أنت مصطلى — ويا دمـــــع عيني حبذا أنت موردا
ويا سقمي في الحب أهلا ومرحبا — ويا صخرة السلـــوان شأنك والعدا

2. مذهب وحدة الشهود:

. ومن أبرز شعراء هذا المذهب نجم مُحَمَّد بن إسرائيل ولد بدمشق سنة 603هـ وتوفي سنة 677هـ، ويذهب بن إسرائيل في شعره الصوفي الخالص مذهب وحدة الشهود، ويرى أن في وصف جمال الخلق تعبدا للخالق، ذلك أن الأشياء مظاهر

[3]- ضرب الحلاج ألف سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وحز رأسه ونصب يومين على الجسر، ثم حمل إلى خراسان وطيف به هناك، أما جثته فأحرقت ثم رمي برمادها في دجلة. وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يحيون بها ذكراه، وظلت خالدة على مر الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك.

مختلفة للخالق، فهي شاهدة عليه، وفي جمالها الظاهري شواهد على الجمال المطلق، والتأمل في ذلك الجمال والتغني به ترديد لأنعم الله وآلائه. وفي هذا يقول:

هذا الوجود وإن تعـــــدد ظاهراً وحياتكم ما فيـــــــــــه إلا أنتم
وشغلتم كلي بكم وجـــــوارحي وجوانحي أبداً سمعت فمنكم أو عنكم
وإذا نطقت ففي صفات جمالكم وإذا سألت الكائنات فعنكـــــــــم
وإذا سكرت فمن مدامة حبكـم وبذكركم في سكرتي أتـــــــــــرنم
إذا نظمت تغزلاً في صـــــــورة فلأجـــــــل حسنكم المحجب أنظم
أنتم حقيقـــــــة كل موجود بدا ووجود هذي الكائنات توهـــــــم
أنا في وجـــــودكم غريب بائس وغريبكم ما باله لا يرحـــــــــــم

3. مذهب الحلولية: مذهب وحدة الوجود.

من شيوخ هذا المذهب علي بن عبد الله النميري المعروف بالششتري [610هـ- 668هـ]نسبة إلى قريته ششتر، وأصله من الأندلس، تتلمذ على يد ابن سبعين، وكان ينظم الشعر ويغني به في الأسواق على آلته الششترية، ويكشف عن طريقته وهي طريقة أستاذيه ابن عربي وابن سبعين، التي تتلخص في إنكار النظرة العقلية للكون والعقيدة، لأن نور العقل عندهم هو الذي سجن الإنسان في أوهامه، وفي حدود طاقته القاصرة، وفي هذا يقول:

تقيدت بالأوهام لما تـــداخلت عليك، ونـــــــور العقل أروثك السجنا
أما لك حـول؟ فاستمع لوصيتي عقال من العقـــــــل الذي منه قد تبنا
فلا تلتقي في السير غيرا وكلُّ ما سوى الله غير، فاتخـــــــذ ذكره حصنا

ويرى أصحاب الحلولية أيضا أن الوجود المطلق قد قيد نفسه بالأزمان، كما حدد ذاته بالمكان أو "الأين". ومن ثم تكون الذات المطلقة في رأيهم قد تفرقت في هذه المظاهر المادية في الشكل لا في الجوهر. وبهذا فكل شيء في الوجود هو الإله.

4. مذهب عشق الجمال.

خير من يمثل هذا المذهب في عصر الضعف، هو الشاعر تقي الدين السروجي، ولد بمدينة سروج بديار مُضر بالجزيرة الفراتية سنة 627هـ. يغلب عليه حب الجمال، مع العفة التامة والصيانة، نظم كثيرا وغنى بشعره المغنون، كان مأمون الصحبة، طاهر اللسان، يتفقد أصحابه، ولا يكاد يظهر إلا يوم الجمعة. والمتتبع لشعره يلاحظ فيه تعلقه بالجمال الحسي الذي يرى فيه صورة من جمال الحق، فهو يتعبد له ويتزلف مباشرة دون تجرد أو رمز، وربما كان هذا فرقا بينه وبين غيره من عشاق الصوفية من أصحاب الوجد. يقول في واحدة من قصائده:

في الجانب الأيمن من خـــدها نقطـــــــة مسك اشتهي شمها
حسبته لما بـــــــــدا خالها وجـــــــدته من حسنه عمَّها